

## البركان يفور

أصدر هذا الكتاب المتنيح القمص بيشوي كامل أثناء الفترة العصيبة لانتخاب البطريرك عام 1971، حيث كان الصراع محتدماً حول انتخاب البطريرك، الذي قاده كلا من الأنبا صموئيل أسقف الخدمات والأنبا شنودة أسقف التعليم. لم يكن الصراع يدور بين أفراد بقدر ما كان صراعاً حول مبادئ. كان الشعب المثقف الواعي في ذلك الوقت يقدر القانون الكنسي عن خبرة عملية ووعي بأهميته لحماية الشعب من المغامرين أصحاب المطامع والأهواء الشخصية، فقد كان هناك إصراراً شعبياً على أهمية تطبيق القانون دون استثناء بغض النظر عن تاريخ وثقل الأشخاص المطلوب استثنائهم من القانون.

والشعب في ذلك الوقت كان قد تعلم أهمية احترام القانون الكنسي بل واعتباره مقدساً ليس عن تعصب وحرافية بل نتيجة لتجربة عملية واضحة تم فيها مخالفة القانون الكنسي باختيار أحد الأساقفة (المطارنة) للكرسي المرقسي، لثلاث مرات متعاقبة خلال القرن العشرين. وفي كل مرة تمت المخالفة كانت النتيجة مؤسفة ومريرة. وأعقب ذلك مباشرة تجربة رائعة بهيجة لا يمكن للشعب أن ينساها، وهي عصر الأنبا كيرلس السادس بكل ما فيه من خير وسلام في الكنيسة، وذلك عندما أصر الشعب القبطي بكل طاقاته ودرجاته على احترام القانون الكنسي، بمنع ترشيح كل من يحمل درجة الأسقفية للكرسي البابوي.

في كل مرة حدثت المخالفة لقوانين انتخاب البطريرك كانت تبدو هناك ظروفًا ملحة حسب الظاهر تتطلب الإسراع في اختيار شخص للكرسي المرقسي مخالفاً للقوانين الكنسية. وفي كل مرة تبين أن ذلك وهما شيطانياً، يستهدف فرض على الكنيسة شخصية تتجاسر على مخالفة القوانين الكنسية عن وعي. ومن لم يكن أميناً على احترام القانون الكنسي من أجل مصالحه الشخصية كيف يمكن أن يؤتمن على رعاية الشعب في مخافة الله؟! كيف يمكنه أن يقود الشعب القبطي في ظروفه المريرة لطاعة الوصية المقدسة بينما وضعه هو نفسه كراعي مخالفاً للوصية والقانون الكنسي!!!

أول مخالفة للقانون الكنسي في تاريخ الكنيسة القبطية حدثت بعد نياحة البابا كيرلس الخامس في 7 أغسطس عام 1927. الأنبا يونس مطران البحيرة كان يعمل وكيلاً للبطريرك لسنوات عديدة بسبب كبر سن الأنبا كيرلس الخامس مما أتاح له الفرصة للتعامل مع القيادات السياسية وتقربه من الملك فؤاد. وكان الملك حريصاً على أن يختار القيادات الدينية الإسلامية والمسيحية كوسيلة للسيطرة على الشعب عن طريق الدين. فكما تدخل بشكل سافر في شؤون الأزهر وفرض القيادات الإسلامية كذلك فرض الأنبا يونس مطران البحيرة بطريركاً للكنيسة.

ويشرح الموقف قليني فهمي باشا الوزير الوفدي الذي كان معاصراً للأحداث في مقال له كتبه بجريدة مصر (في أول مارس عام 1946 بعد نياحة البابا مكاريوس الثالث) ذكر فيه:

*[بعد نياحة الأنبا كيرلس الخامس بوقت قصير، توفي مطران الحبشة الذي يعين من قبل الكنيسة القبطية، وكان الكرسي البطريركي خالياً في هذا الوقت. ولما رأى جلالة الملك فؤاد أن هناك خلافاً واسعاً على اختيار خليفة لكيرلس الخامس وإنه يخاف من تأجيل اختيار البطريرك وتأخير رسامة مطران جديد للحبشة، أن تنتهز بعض الدول الأجنبية خلو كرسي الحبشة من مطرانه القبطي فتعمل على إحلال*

مطران غيره من أبنائها محله. ويستطرد قلمي باشا حديثه قائلا "إني أحببت جلالة الملك بأن التقاليد المتبعة أن يُختار البطريرك من رهبان الأديرة، فأجاب الملك، على أية حال أرى إن الأنا يونس جدير بهذا المنصب ولا بأس من الاستثناء هذه المرة فقط للظروف التي أشرت إليها. ويختم قلمي باشا بأن في حالة اختيار الأنا يونس للبطريركية كانت هناك ظروف تقضي بضرورة الإسراع برسامة مطران للحبشة وهي التي أدت إلى اختيار الأنا يونس للبطريركية بمساعدة جلالة الملك المعظم فؤاد الأول. ويقول إني أذكر هذه الحوادث ولا أمل من ذكرها لكي أحفز الهمم لاختيار البطريرك المرتقب بنعمة الله أن يكون من الرهبان ولا يتكرر ما حدث كاستثناء مرة أخرى." [

لقد كتب قلمي باشا هذا المقال محذرا الشعب من تكرار الخطأ للمرة الثالثة بعد أن اختبر بنفسه نتيجة مخالفة القانون الكنسي. هذا المقال كتبه عندما كان الشعب يستعد لانتخاب البطريرك بعد نياحة الأنا مكاريوس الثالث والذي جاء بعد الأنا يونس، حيث تكررت المخالفة للقوانين الكنسية للمرة الثانية مع الأنا مكاريوس، فقد كان مطرانا لأسبوط قبل اختياره للبطريركية. ورغم قداسة الأنا مكاريوس فكان عصره الذي استمر لمدة سنة ونصف فقط عصر قلاقل ومشاكل غير عادية. فبعد ستة أشهر فقط من حبريته اعتزال البابا في الدير إلى نهاية حياته، بسبب المشاكل التي بلا حل، والتي اعتبرها البابا أنها نتيجة مخالفته للقانون الكنسي. وقد صرح البابا بذلك مرات، وطلب من الله أن يقصر مدة حياته حتى يعود الوضع الطبيعي للكنيسة باختيار بطريركا قانونيا. واستجاب الله لطلبه.

ورغم الدرس العملي الذي أعلنه الله في عصر الأنا مكاريوس، وتحذير قلمي باشا للشعب من مخالفة القانون فإن السياسة النهممة التي لا تحترم قانون ولا تعترف بحق الشعب في اختيار الراعي لعبت دورها الرخيص للمرة الثالثة في تاريخ الكنيسة. ومن العجيب أن نفس المجموعة من أصحاب المصالح التي فرضت على الكنيسة الأنا مكاريوس هم أنفسهم الذين فرضوا الأنا يوساب، برغم مما لمسوه من عواقب مخالفة القانون الكنسي من متاعب أضرت بالكنيسة وبهم. وكان يتزعم هذه المجموعة كل من المنيأوي باشا الجراح الشهير، وكيل المجلس الملي والإيغومانس إبراهيم لوقا. وكان حبيب المصري باشا هو الذي وقف في صلابة مطالبا بتطبيق القانون الكنسي إلا أن العبث السياسي في ذلك الوقت كان أقوى من صوت الضمير، فجاءت بالأنا يوساب مطران جرجا ليصير البطريرك 115 في تاريخ الكنيسة القبطية.

رغم أن الأنا يوساب نفسه كان رجلا طيبا وقديسا كما كان مهتما بالتعليم وكان مثقفا وعالما لاهوتيا إذ تخرج من جامعة أثينا اللاهوتية. ورغم جهوده الجبارة في نشر المعرفة ورفع المستوى الثقافي في الكنيسة واهتمامه البالغ بالكلية الإكليريكية وإقامة ميناها الجديد على أرض الأنا رويس، كما أقام معهد الدراسات القبطية. وقد اهتم الأنا يوساب بالأديرة والرهبان اهتماما بالغا فيعتبر عصره من أزهى عصور الرهبنة القبطية وهذا ليس فقط لظهور أبونا متى المسكين بل أيضا لرعاية البابا شخصيا للنهضة الرهبانية الجديدة، حتى أنه اختار أبونا متى المسكين ليكون وكيلا للبطريركية بالإسكندرية. ولم تتمتع الرهبنة والخدمة بحرية العمل حرية البناء مثلما تمتعت في عصر الأنا يوساب.

ورغم كل ذلك فإن المتاعب التي توالى في عصر الأنا يوساب كانت فوق الطاقة وفوق احتمال الأنا يوساب نفسه وعُزل البابا من كرسيه وقضى نهاية أيامه في مرارة تفوق التصور وكانت خاتمة حياة الأنا يوساب عبرة لكل من تسول نفسه من الأساقفة والمطارنة على مخالفة القانون الكنسي كما كانت درسا للشعب وضعه صوب عينيه عند التفكير في اختيار البابا التالي.

ولعل مجلة مدارس الأحد كانت المرآة التي عكست صورة متاعب الكنيسة في ذلك الوقت بسبب مخالفة القانون الكنسي، وأعجب ما في الأمر تلك المقالات النارية التي كان يكتبها نظير جيد، يدافع فيها عن القانون الكنسي الذي كسره البابا، والتي كانت واحدة من أسباب متاعب البابا الأنبا يوساب، التي كانت تنغص حياته، مع داوم تذكيره بخطيته. هل يستطيع العقل أن يستوعب ما فعله نظير جيد بعد ذلك؟ من يستطيع أن يتصور أنه بعد أن كتب كل هذه المقالات التي زلزلت الأرض تحت أقدام الأنبا يوساب وحركت كل الشعب ضده. هل ممكن أن نتصور أن الأنبا شنودة (الأسقف) يقوم بنفس العمل المخالف الذي حاربه في مقالاته العنيفة لمدة سبع سنوات منذ عام 1947 حتى عام 1954 ليقوم بترشيح نفسه للبطريركية عام 1971 ويقوم بعمل مؤتمرات للدعاية الانتخابية لنفسه حيث عمل اجتمع لأمناء وخدام مدارس الأحد ليبرر جريمته. لهذا كله أصدر المتيح أبونا بيشوي كامل بيانه الشهير عن شعب الإسكندرية اليتيم. ثم أصدر كتاب "البركان يفور" عن نفس الموضوع.

وعنوان الكتاب يعكس حالة الغليان في تلك الفترة بسبب ترشيح أساقفة من مدارس الأحد أنفسهم الأمر الذي كان يخالف تماما كل المبادئ التي نادى بها مدارس الأحد. الكتاب هو تاريخ أحد البطاركة العظام هو الأنبا ميخائيل، البابا رقم 46. والكتاب مقتبس من كتابات المؤرخة إيرس حبيب المصري. ويعكس عظمة بطاركة الكنيسة القبطية الذين حرصوا على تنفيذ وصية المسيح وقوانين الكنيسة واحترموا مبادئهم غير هيايين الموت.

وإليك أيها القارئ الكتاب وبعد أن تقرأه سنقدم لك تاريخ ما حدث حتى وصل الأنبا شنودة الأسقف إلى الكرسي البابوي ضاربا بكل ما نادى به من مبادئ عرض الحائط، محتقرا لرأي الشعب، مستندا على القوة السياسية، لكي يخالف القوانين الكنسية.



سلسلة كتب تاريخية

(١)

# البركان يفور

الاستاذة

ايريس حبيب المصري

سلسلة قصص تاريخية

(١)

# \* البركان يفور\*

كنيسة مارجرس باسبورتنج

\* « مأخوذ عن كتاب قصة الكنيسة القبطية » الكتاب الثانى

للإستاذة ايريس حبيب المصرى



# البركان يفور

## فترة حالكة

كانت فترة السلام التي سادت مصر عند تولي القاسم بن عبيد الله الحكم قصيرة الأمد . ذلك أن هذا الوالي استهل حكمه بالمسالمة ولكنه لم يلبث أن نسي الرفق واللين واندفع في سياسة العنف والقوة متناسياً نصيحة الخليفة هشام . على أن قسوته لم تظهر إلا بعد نياحة الأنبا ثيودورس ، إذ قد شاء المولى تعالى أن يضم البابا الجليل إلى داره الأبدى قبل أن يتمادى القاسم في استبداده . فكانت مصر بعد نياحة الخليفة المرقسي فريسة لقوى ثلاثة أحلاها علقم : هي القحط والوباء وبطش القاسم . فإن هذا الوالي لم يرحم الشعب المسكين الذي استبد به الوباء وضيق عليه القحط الخناق فتشدد في المطالبة بالجزية إلى حد أنه كان يحكم بالجلد علناً على كل من لا يؤدي المال المفروض عليه .

وفي تلك الفترة المليئة بالأهوال لم يتمكن الأساقفة والأراخنة من الاجتماع للتشاور في من يخلف الأنبا ثيودورس على السدة المرقسية ، وذلك لعدم توافر الأمان اللازم للاجتماع والتشاور . فكان كل مسئولٍ منهم منشغلاً بالعناية بشعبه الجريح المضطرب .

## الأديرة منارة ساطعة وسط الظلام

ومن مظاهر عناية الآب السماوية بكنيسته أنه على الرغم من كل هذه البلايا فقد ظلت الأديرة مليئة برجال الله القديسين الذين كرسوا حياتهم للضراعة من أجل اخوتهم المعذبين في العالم .

وكان الدير الذي يحمل اسم السيدة العذراء في منطقة تنيس إحدى هذه المنارات الساطعة ، وفيه عاش رهبان تجملوا بالفضائل المسيحية ومن بينهم الناسك ابيماخوس الذي بدأ حياته الرهبانية في دير الأنبا مكاري الكبير والذي استحق أن ينال كرامة الأسقفية بعد ذلك . وقد عاش في هذا الدير أيضاً الأنبا مينا الذي اختير لأسقفية ممفيس وأخوه في الرهبنة القس يعقوب وغيرهما من الرهبان الصالحين .

## تبدل الوالى والاجتماع للتداول فى انتخاب البابا الاسكندرى

ووسط هذه الفترة الحالكة ظلت السدة المرقسية شاغرة وبعد انقضاء ما يقرب من ثلاث سنين رأى الثيودوسيون<sup>(١)</sup> أن يجتمعوا ويتشاوروا لكي يرشدهم الله إلى الربان اليقظ

---

(١) نسبة الى الأنبا ثيودوسيوس البابا الاسكندرى ال ٣٣ - أنظر ص ١٣٩ - ١٥٢ من كتاب قصة الكنيسة القبطية الكتاب الثانى .

الذى يمك بدفة الكنيسة ويجمع كلمة المؤمنين . فتقابلوا  
وقصدوا إلى دار الولاية ليبلغوا القاسم رغبتهم فى انتخاب  
راعيهم الأول . ولكنهم - حين وصلوها - لم يجدوه وعلموا  
أن الخليفة قد استدعاه على عجل مما اضطره إلى مغادرة  
الفسطاط فى حراسة الجند الذين اقتادوه إلى الخليفة . فلم  
يشأ الأساقفة والأراخنة أن يضيعوا وقتاً أكثر مما ضاع وجدوا  
السير فى أثر القاسم ولحقوا به فى مدينة بلبيس وأعلموه  
بالسبب الذى جاءوا من أجله . والعجيب أن القاسم - مع  
كونه تحت حراسة الجند ومع علمه بأنه مفضوب عليه من  
الخليفة - ظل على تعسفه ، فرفض أن يسمح للأساقفة  
والأراخنة باجراء الانتخاب . وعندها التفت الأنبا ثيودورس  
أسقف بابلون إلى الأنبا مومسيس أسقف أوسيم وقال له :  
« تأمل يا أبى سلوك هذا القاسم والشر الذى يلازمه والذى  
زاد على كل ما رأينا وما سمعنا » . أجابه الأنبا مومسيس :  
« أغفر لى يا أبى لأنه إن عاد القاسم مصر ثانية فلا يكون  
الله تعالى قد تحدث على فمى أنا الخاطى » .

ولقد تحققت كلمات هذا الأسقف القديس إذ انتهى الأمر  
بخلع القاسم وتعيين حفص بن الوليد مكانه . ولما وصل الوالى  
الجديد إلى مصر قابله الأساقفة والأراخنة ورجوا منه أن يأذن  
لهم بالاجتماع للتشاور فمنحهم الاذن لساعته .

## التشاور عشرة أيام دون جدوى

وفرحوا بهذا التصريح المباشر فذهبوا على الفور إلى كنيسة الأنبا شنودة ببابلون حيث صلوا ثم جلسوا في صمت وبعد فترة قصيرة التفت أسقف اثنى إلى الفيوم وسأله : « ما رأيك يا أبى فى الموضوع الذى اجتمعنا بسببه ؟ » أجابه : « المرء فى التفكير والرب فى التدبير . وانى لوائح تمام بأن الله تعالى سيلهمنا اختيار الصالح من الرهبان . وأن القديس مرقس نفسه سيشترك معنا فى الانتخاب » . وحين سمع المجتمعون هذه الكلمات استبشروا خيراً وقالوا بصوت واحد : « ليصنع ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح ارادته فينا » . ثم قرروا الانصراف على أن يعودوا للاجتماع فى اليوم التالى . واستمروا عشرة أيام يجتمعون ويصلون ثم ينصرفون بسلام دون الوصول إلى نتيجة .

وفى اليوم الحادى عشر اقترح بعض المجتمعين اسم راهب لم يوافق عليه البعض الآخر . فأخذوا يتبادلون النقاش حول صلاحية الراهب المقترح ثم احتدم الجدل دون أن يقتنع فريق برأى الآخر . وبدا كأنهم سينصرفون كما فعلوا فى الأيام السابقة من غير أن يصلوا إلى غايتهم المنشودة وكأن اجتماعاتهم لا تستهدف غير الجدل ! وعندها قال واحد من الجمع : إن لم يحضر اجتماعنا أسقفنا أو سيم وترنوط فلن نصل

إلى حل صحيح لموضوعنا .

### حضور الأنبا موسىيس ومناداته بالصوم والصلاة

وكان الأنبا موسىيس شيخاً إذ ذاك . ولم تكن السنون وحدها هي المسئولة عن ضعفه بل كان المرض حليفاً أيضاً ، فرأى أن يقضى بضعة أيام في دير نهيا للاستشفاء . فلما جاءه رسل المؤمنين المجتمعين في كنيسة الأنبا شنودة رأى أن يتحامل على نفسه ويلبى الدعوة لأهمية الموضوع . ولكنه لمرضه لم يستطع أن يعتلى ظهر الدابة التي أحضروها له . فأحضر له بعض أبنائه نقالة وضعوا عليها مرتبة سميكة تقيه الألم . فاستلقى عليها ثم حملوه إلى بابلون إلى كنيسة الأنبا شنودة . وحين وصل الأنبا موسىيس وجلس في صدر الكنيسة وجد أن الجدل احتدم بين المجتمعين فقال لهم : « إننا لن نصل إلى حل يرضى الجميع إلا بالصوم والصلاة في عزم وحرارة لذلك أرى أن تنصرفوا الآن . وحالما يصل كل منكم إلى بيته ينقطع للصوم والصلاة مدى الأربع وعشرين ساعة التالية . وغداً نعود جميعاً إلى هذا المكان المقدس في مثل هذه الساعة . وآمل أن يكون الله تعالى قد ألهمنا النتيجة الصحيحة استجابة لضراعتنا » . فحسن هذا القول في أعين الجميع وأنصرفوا بسلام .

الاجماع على انتخاب الراهب ميخائيل من دير الاتبا مكارى الكبير  
وفى الليلة المكرسة للصلاة تنبه أحد شمامسة الأنبا  
موسيس من نومه ، واقترب من فراش هذا الأسقف العظيم  
فوجده صاحياً فقال له : « اغفر لى يا أبى . فقد أوحى إلى  
ملاك الرب أن أخبرك بأن الراهب المستحق لهذه الكرامة  
العظمى هو ميخائيل المتنسك بدير الأنبا مكارى الكبير » .  
أجابه الأنبا موسيس على الفور : حقاً إن ملاك الرب هو  
الذى أوحى إليك بهذا الاقتراح ، لأننى أعرف هذا الراهب  
وأعرف ما تجمل به من مزايا » .

وفى اليوم التالى اجتمع الأساقفة والأراخنة فى كنيسة  
القديسين سرجيوس وواخس <sup>(١)</sup> . ولما اكتمل جمعهم قام  
أحدهم وأقترح اسم الراهب ميخائيل قبل أن يعرف ما دار بين  
الأنبا موسيس وشماسه . فلما تردد اسم هذا الراهب من فم  
إلى فم وقف الاتبا موسيس وأعلن للجميع ما رآه شماسه فى  
الليلة السابقة . وعندها هتف الجميع « أكسيوس » ثلاث  
مرات . وفى الحال انتدبوا بعضاً منهم لمقابلة حفص الوالى  
والاستئذان منه فى الذهاب إلى برية شيهيت ومنها إلى

---

(١) هى الكنيسة الشهيرة باسم « أبى سرجة » من الكنائس الأثرية  
ببابلون ( مصر عتيقة )

الاسكندرية لاجراء المراسيم الكنسية التقليدية . فمنحهم هذا  
الوالى التصريح على الفور ، فخرجوا من داره قاصدين إلى  
برية شيهيت لساعتهم .

### تجلى العناية الالهية فى انتخاب هذا الراهب

وبينما كان الأساقفة والأراخنة يتشاورون فى أمر  
الانتخاب ، كان رؤساء الأديرة والرهبان يتشاورون فى أمر  
الجزية الباهظة التى كان القاسم قد فرضها عليهم . فرأوا أن  
خير وسيلة هى أن ينتدبوا بعضا منهم ليذهبوا ويقابلوا حفص  
بن الوليد الوالى الجديد ، ويتظلموا إليه . وبالفعل اختاروا  
مندوبيهم - وكان بينهم الراهب ميخائيل الذى كان قد وقع  
عليه الاختيار ليجلس على الكرسي المرقسى الشاغر . وحدث  
أنه فى اللحظة التى همّ وقد الرهبان فيها بالخروج من الدير أن  
التقى بالوفد الآتى من القسطنطين ليستصحب الراهب ميخائيل  
إلى الاسكندرية . وقد فرح مندوبو الأساقفة والأراخنة حينما  
وجدوا مختارهم بين نواب الرهبان . ومن ثم سار الوفدان معاً  
إلى القسطنطين وهم يترنمون بالمزامير والتسابيح الكنسية  
المناسبة . ولما وصلوا إلى دار الولاية وقابلوا حفصاً أعلموه بما  
جرى . فتفرس فى الراهب ميخائيل بضع دقائق ثم قال :  
« حقاً إن هذا الرجل اختاره الله ليرعاكم ، فخذوه واذهبوا به  
بسلام » .

## الذهاب الى الاسكندرية لرسامته خليفة لمارمرقس

وفى اليوم التالى ركب الجميع مركباً قاصدين إلى الاسكندرية . وبينما كانت المركب تنساب فوق مياه النيل ، كان الشعب يخرج فى جموع متلاحقة على شاطئيه لتحية المختار للسدة المرقسية . بل لقد اضطر قبطان المركب إلى إيقافها أكثر من مرة ليتمكن الجماهير من تأدية تحيتهم حسب ما يرغبون . وقد انتهز بعض المؤمنين فرصة رسوا المركب لينزلوا فى أوسيم طلباً للأتبا موسىس الذى كان قد عاد إلى مقر رياسته حالما استقر رأى على انتخاب الراهب ميخائيل . وكان لهم قريب مصاباً بداء الفالج مدة خمسة عشر عاماً . فحملوه إلى الأسقف القديس . وحين اقتربوا من رجل الله صرخ المريض : « ارسم علىّ علامة الصليب يا أبى موسىس . ارسمها فقط وأنا أومن أنى سأشفى » . وعندها رسم الأتبا موسىس علامة الصليب على رأس المريض ثم نفخ فى وجهه فقام لساعته ومشى ، وأخذ يسبّح الله الذى يمنح قديسيه المقدرة على اجراء الآيات والعجائب .

ثم أنضم الأتبا موسىس إلى الركب البابوى ، وساروا إلى الاسكندرية فقابلهم الشعب هناك فى جموع متدفقة وعلى رأسهم الكهنة والشمامسة وقد حملوا الأناجيل والشموع والمباخر والصلبان ، واتجهوا جميعاً فى موكب رائع نحو الكنيسة

المرقسية . وما كاد الموكب يخطو بضع خطوات حتى انهمر  
المطر مدراراً . وكانت قد انقضت سنتان لم ينزل خلالهما إلا  
القدر الضئيل من المطر . فتهلل الشعب لهذه الظاهرة إذ عدها  
علامة الرضى من رب الكنيسة على الراهب المختار . فازداد  
التهليل وارتفع الهتاف ، ولما وصلوا الكنيسة قام الاساقفة  
برسامة الراهب ميخائيل ، فأصبح الخليفة السادس والاربعين  
لرسول المسيحية فى ديارنا المصرية سنة ٧٣٥م (سنة ٤٥١ش )

### فوضى واضطهاد

ولقد كانت السنة الاولى لبابوية الأنبا ميخائيل الأول مليئة  
بالعسف والضيق . ذلك أن أسامة بن يزيد متولى الخراج فرض  
ضرائب باهظة على المصريين وضاعفها على القبط . وبين  
الأمثلة على مغلالاته فى ابتزاز أموال الشعب المسكين أنه  
فرض ضريبة مقدارها عشر دنانير على كل من ينتقل من بلد  
إلى آخر عن طريق النيل . وكان عاتياً فى الاستيلاء على  
الضرائب إلى حد أن أرملة كانت مسافرة فى مركب ذات يوم  
ومعها ابنها . وحدث أن أراد ابنها هذا أن يستقى ماءً من  
النيل . فخطفه قساح على مشهد من جميع الركاب دون أن  
يستطيع أحدهم انقاذه . وكانت التذكرة التى ثبتت أنها  
دفعت الضريبة فى جيب ابنها ساعة أن خطفه القساح . فلما  
وصلت إلى البلد الذى تقصد إليه طالبها أعوان أسامة بن يزيد

بالضريبة . وعبثاً حاولت أن تقنعهم بأنها دفعتها إذ قد أصروا على أخذ المبلغ منها ، غير مباليين بحزنها على فقد ولدها ويفقرها الذي اضطرت معه الى بيع شيء مما عندها لتدفع الضريبة المفروضة مرة ثانية . وكان هذا التصرف في الاستيلاء على المال بدعوى أنه ضريبة واجبة الأداء سبباً في أن ينسى بعض القبط ولاهم لمسيحياتهم ، فأنكروها ليفوزوا بالاعفاء من دفع المال الذي حتمه عليهم أسامة بن يزيد <sup>(١)</sup> . وقد امتلأ قلب الأنبا ميخائيل الأول حزناً وغماً حينما واجه هذه الخيانة من هولاء الأبناء الجاحدين ، فلم يجد أمامه وسيلة للمحافظة على شعبه غير الصلاة . وعلى ذلك قصد هو وبعض الأساقفة إلى برية شيهيت حيث انقطعوا للصوم والصلاة ضارعين إلى الأب السماوي أن يعذارك المؤمنين بمراحمه ويرفع عنهم الجور والاستبداد فاستجاب الله تعالى لهذه الضراعة الحارة ، وهياً الفرج إذ قد وصل الأمر من الخليفة مروان الثاني برفع يد أسامة وتعيين حسان مكانه . وقد امتاز حسان هذا بالحكمة حتى أن معاصريه شبهوه بالملك سليمان بن داود . وقد بدت هذه الحكمة في خطة العطف واللين التي اتبعها مع المصريين . فتهلل قلب الأنبا ميخائيل الأول لذلك ، وبادله

---

(١) تاريخ الأمة القبطية لعقوب نخلة ووفيلة ص ٧ - ٧١

الزيارات . وامتلاً قلب حسان اعجاباً بالبأبا الاسكندرى إلى حد جعله يتخذه مستشاراً له . ولما كان الأنبا موسىيس من الملازمين للأنبا ميخائيل الأول ، فقد توطدت بين الوالى حسان وبين هذا الأسقف القديس أواصر الصداقة . وقد سعد الجميع بهذه الألفة التى ربطت بينهم فقصده حسان إلى أوسيم حيث قضى ثلاث سنين ليكون على مقربة من الأنبا موسىيس ويستشيريه فى جلائل الأمور ويسترشده بأرائه فى ادارة شئون البلاد .

وفى هذه الفترة التى تنفس فيها المصريون الصعداء ازدادات حدة التوتر بين الأمراء لتزايد المنافسة فوجد الخليفة نفسه عاجزاً عن حفظ النظام واضطر إلى فرض سلطته بحد السيف . ثم استتب الأمر فى النهاية لمروان ، على أنه لم يجد من وسيلة للاحتفاظ بمركزه غير القوة فاستبد بالأمراء والولاية قبل أن يستبد بالشعوب .

### مروان يتقلد الخلافة والخلقيدونيون يتلاعبون

وقد عاود الخلقيدونيون مؤامرتهم فى تلك الأثناء فقدموا هدايا نفيسة من الذهب والفضة والحديد للخليفة ونجحوا فى اقامة أسقف لهم على الاسكندرية . ولما فازوا بهذا النصر رفعوا طلباً إلى مروان ادعوا فيه بأن كنيسة مارمينا بمربوط ملك لهم لا للقبط . غير أن هذا الطلب الثانى لم يلق

الترحيب الذي قوبلت به رسامة الأسقف لأن هذا الخليفة أمرهم  
بالمثول بين يديه في حضرة الأنبا ميخائيل الأول ليعلن كل من  
الطرفين ما لديه من الحجج التي تثبت حقه في ملكية هذه  
الكنيسة .

### النزاع حول ملكية كنيسة مارميثا

وما أن عرف البابا الاسكندري رغبة الخليفة حتى غادر  
الاسكندرية على الفور واستقل مركباً إلى الفسطاط . ولما  
وصل إلى أوسيم انضم إليه أسقفها الأنبا مومسيس يصحبه  
عدد من الكهنة والأراخنة . ثم استقبل الأنبا ثيودورس  
أسقف بابلون الركب البابوي عند وصوله إلى الفسطاط ،  
وذهب الجميع معاً إلى دار الخلافة حيث تناقشوا مع  
الخلفيدونيين في حضرة الخليفة مروان . وبعد نقاش دام عدة  
أيام طلب الخليفة إلى كل من الفريقين أن يقدم مستندات  
كتابة . وعلى أثر ذلك عقد الأنبا ميخائيل الأول مجعماً من  
أساقفة الكرازة المرقسية وأراختها . وبعد أن تداولوا معاً  
كتب البابا الاسكندري رسالة مملوءة نعمة وحكمة قال فيها :  
« من ميخائيل - بنعمة الله أسقف الاسكندرية وبابا للشعب  
الشيودوسي ، إلى أولى الأمر - إنه في عهد الأميرين  
التقيين هونوريوس وأركاديوس ، وفي أثناء باباوية الأنبا  
ثيوفيلس البابا الاسكندري الثالث والعشرين ، قد بدئ  
بتشييد كنيسة مارميثا العجائبي . لأن هذا البابا الجليل كان

ولوعاً بالفن المعماري شغوفاً باقامة بيوت العبادة ليهيئ للناس أسباب التقرب الى الله تعالى . فبدأ في بناء هذه الكنيسة ، وأنتم بناعها الأنبا تيموثيوس الثاني البابا الاسكندري السادس والعشرون في عهد الأمبراطور زينون الذي حاول أن يكفر عن سيئات سلفه الامبراطور مرقيانوس باغداق العطايا على الأديرة والكنائس . وكان مرقيانوس هذا قد أمر بعقد مجمع خلقيدون وتجننى فيه على الأنبا ديسقورس البابا الاسكندري الخامس والعشرين ، وأمر بنفيه ، ثم أمعن في تعذيب الشعب القبطي المخلص لعقيدته الأرثوذكسية وللباباه البطل المنفى المفترى عليه ، ومذاك حاول الخلقيدونيون أن يبسطوا بالقبط بكل وسيلة ، واستمر بطشهم بنا إلى أن آل الملك إلى العرب بعد سقوط الامبرطورية البيزنطية سنة ٦٤١ م . وإنما - حتى هذه الساعة - نصر على عدم الاعتراف بمجمع خلقيدون ونجهر ببطلان قراراته ، كما نؤكد ثقتنا في الأنبا ديسقورس الذي تحمل النفي والتشريد دون أن يتزحزح عن إيمانه الأرثوذكسي قيد أنمله .

أما الخلقيدونيون فكتبوا مذكرة موجزة . ثم قدم كل من الطرفين رسالته إلى عيسى رئيس الديوان الذي كان منوطاً به النظر في أمر هذا النزاع . على أن هذا الرئيس ألقى بالرسالتين في الدرج ولم يعط جواباً مدة شهر كامل . وبإزاء هذا التلكؤ أخذ بعض القبط يتساءلون عن السبب ، وخامرهم

الشك في أن عيسى رئيس الديوان قد عطل الحكم في هذا الموضوع ليأخذ رشوة . وحين ساورتهم هذه الشكوك اعترفوا بها للأبنا مورييس ، فأجابهم هذا الأسقف القديس قائلاً : « ليس من اللائق أن يتقدم مثلنا برشوة . ونحن لم نضطر إلى الانتظار عشرة سنين ، ولا حتى سنة ، كما اضطر أبائنا في مختلف المناسبات ، فنحن نعيش في بيوتنا ونصلى في كنائسنا ، وليس بيننا من اضطره الظلم إلى الهرب أو إلى الصلاة في رحاب الصحراء فلنصبر إذن ، ولننتظر ، لأن الله تعالى لن يتركنا ولن يتخلى عنا » .

ولقد استجاب الأب السماوي لثقة الأبنا مورييس في الأسبوع عينه ، إذ قد أصدر الخليفة مروان الأمر بعزل عيسى من الديوان وتعيين أبي الحسين مكانه . وكان أبو الحسين هذا ابناً لقاضي من كبار القضاة ، كما كان عادلاً حكيماً فاستهل عمله بقراءة التقريرين المرفوعين من القبط والخلقيدونيين . وبعد أن قرأهما اطلع الوالي عليهما واتفق كلاهما على أحقية القبط بملكية الكنيسة . وعندها خرج أبو الحسين من دار الولاية وأرسل في طلب الطرفين المتنازعين وما أن مثل الجميع بين يديه حتى التفت إلى الخلقيدوني الدخيل وقال له : « إن تقريرك يثبت أن لا إله لك ولا دين ، وأن الكنيسة ملك القبط فإن شئت فاكتب تقريراً ثانياً . فلما أحسوا الخلقيدونيون بأن قضيتهم خاسرة بعثوا إلى الأبنا ميخائيل

الأول والأنبا موسىس وبقية الأساقفة الأرثوذكسين طالبين الانضمام إلى الكنيسة القبطية . على أن البابا الاسكندري رأى أن يمتحنهم أولاً ، ووافق الأنبا موسىس على رأيه وبعد مداورات ثبت للمجمع الاسكندري أن هؤلاء الخلقيدونيين منافقون لا يبغون غير الاستيلاء على كنيسة مارمينا ، فرفض طلبهم .

وحدث بعد ذلك بأيام أن أرسل أبو الحسين فى طلب القبط والخلقيدونيين مرة ثانية ليفصل فى أمر النزاع القائم حول كنيسة مارمينا . فجاء إليه الأنبا ميخائيل الأول بنفسه يصحبه عدد من الأساقفة . فلما استقر بهم المقام التفت أبو الحسين إلى البابا المرقسى وقال له : « أتقسم بالله العلى أن هذه الكنيسة ملك لك ولآبائك من قبلك ؟ » أجابه رجل الله على الفور : « إن دينى ينهانى عن القسم وبأمرنى أن أقول الصدق مهما كلفنى قوله » . فالتفت القاضى إذ ذاك إلى الخلقيدونى الدخيل وسأله : « أتقسم بأن الكنيسة ملك لك ؟ » أجابه بلا تردد : « نعم . إنى على أتم استعداد لأن أقسم . وما كاد أبو الحسين يسمع هذه الكلمات حتى هز رأسه ساخراً ثم وجه الخطاب إلى الأنبا ميخائيل الأول قائلاً : « أين شهودك ؟ » أجابه البابا المرقسى : « لقد شيد الأنبا ثيوفيلس هذه الكنيسة وزينها باثنى عشر عاموداً نقش اسمه على كل عامود منها . ثم أكمل الأنبا ثيموثيوس البناء

ونقش اسمه على إحدى جدرانها . فشهودى لديك هم أسلافى  
الأمجاد . فلما سمع أبو الحسين هذه الكلمات بعث برسله  
فوراً إلى كنيسة مارمينا ليتحققوا بما قاله البابا الاسكندرى  
الجليل . فلم يلبث هؤلاء الرسل أن عادوا وأقروا بصحة أقوال  
هذا البابا الوقور أمام أبى الحسين والمجتمعين معه . فما كان  
من هذا القاضى المنصف وإلا أن أمر بتسليم كنيسة مارمينا  
للأببا ميخائيل الأول مهنتاً إياه على تمسكه بالحق . فخرج هو  
وصحبه من دار الولاية معززين مكرمين <sup>(١)</sup> .

### شدة وضيق بعد فترة السلام

ولكن فترة السلام كانت قصيرة الأمد ، لأن الأمراء عاودوا  
منافساتهم ، إذ كان كل واحد منهم يتنازع مع غيره أملاً فى  
أن يظفر بالخلافة . على أن مروان ظل قابضاً على صولجان  
الحكم عن طريق الفتك والارهاب . وأصدر أمراً إلى واليه فى  
مصر بمضاعفة الضرائب والتشدد فى جبايتها ، توهماً منه أن  
مثل هذا الاستبداد يضعف من عزيمة المصريين فيمنعهم من  
القيام بثورة عليه . وقد غالى الوالى فى تنفيذ أوامر  
مروان فطالب القبط بدفع مبالغ باهظة . ولما لم يستطع الأتبا  
ميخائيل الأول أن يدفعها أمر الوالى بالقائه فى السجن ،

---

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنوده الصوامعى الهرموسى  
من النسخة المحفوظة بديره ص ١٤٦ - ١٥٢ .

ووضع طوق من حديد حول عنقه ، وربط كتلة ثقيلة من الخشب إلى كل من قدميه . كذلك أمر الوالى بطرح الأتبا موسىس أسقف أوسيم والأتبا ثيودورس أسقف بابلون وايلياس تلميذ الأتبا موسىس في السجن ، ولو أنه لم يكبلهم بالحديد والخشب كما فعل بالأتبا ميخائيل الأول .

### السجن الذى القى فيه البابا الاسكندرى

وكان السجن الذى ألقى فيه البابا الاسكندرى وصحبه مفارة منحوتة فى صخرة ، وليس بها فتحة واحدة تسمح ببصيص من النور أو نفحة من الهواء ومع أن هذه المفارة كانت عديمة النور والهواء إلا أن الوالى رمى فيها بعدد غير قليل من الناس . وحين علم بعض المسجونين بأن الخليفة المرقسى سجين معهم أنبهم ضميرهم وامتلاوا ندماً فاستعطفوه أن يصلى من أجلهم ويحلهم من خطاياهم . وقد امتلأ قلب رجل الله عطفاً وحناناً على هؤلاء البائسين النادمين ، فأخذ يكلمهم فى رقة وعذوبة . وبعد أن عزى قلوبهم الكسيرة منحهم بركته <sup>(١)</sup> .

أما الأسقفان المسجونان مع البابا المرقسى فقد كرسا وقتهما فى السجن لخدمة باباهم الصبور . ولم يستطع أحدهم أن يغير ملبسه مدى سبعة عشر يوماً . ومع أنهما لم يكبلا بالقيود إلا

---

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأتبا ساويرس بن المنفع أسقف الأشمونين ( طبعة ايفتس ) ج ٣ ص ١٣٤ - ١٣٦ .

أنهما كانا يحسان بثقل هذه القيود كأنهما مقيدان مع باباهما .

### رجل مؤمن يجلس على مائدة الملك

وحدث أن عُن رجل مؤمن مشرفاً على مائدة الملك ،  
واستطاع أن يحظى برضاه فانتهاز هذه الفرصة ليتشفع فى  
البابا السجين ، ونال الإذن فى أن يزوره ويحضر له ما يحتاج  
من طعام وملابس (١) .

### رحلة الاتبا ميخائيل الى الصعيد

وبعد انقضاء شهر من الزمان ، والأتبا ميخائيل الأول  
وزملاؤه مصروحين فى هذه المغارة الضيقة الحالكة الظلام ،  
استحضرهم الوالى وطالبهم بدفع الجزية المفروضة عليهم .

---

(١) مخطوط رقم ٢٨٧ تاريخ كنسى ، غير كامل ، محفوظ بالمكتبة  
الأهلية بهاريس ، ورد على ص II ( 105 ) النص التالى : «.... واعتقل  
البطريك ووضع فى عنقه طوق حديد وألقى فى السجن شهراً كاملاً  
ومعه ثلاثمائة رجل ونساء أيضاً وكان المرضى يأتون إلى باب السجن  
فيبارك عليهم البطريك فيبرأون حتى المسلمين والهرير منهم وكان على  
مائدة الملك رجل مؤمن خبير بهتم بالأب البطرک ويفتقدنا ويجب لنا فى  
السجن ما نحتاج إليه وكانت كورة مصر قد هلك أهلها من الظلم  
والخسائر والمخراج .

فأجابه الخليفة المرقسى : « إننى لا أملك شيئاً ، فإن كان لابد من دفعها فاسمحوا لى بأن أطوف الصعيد لأجمع من أبنائى ما يمكننى جمعه » . فحسن هذا الكلام فى عينى الوالى ، ومن ثم استقل الأنبا ميخائيل الأول مركباً سارت به جنوباً . وكان كلما رست المركب فى مكان ما - ينزل البابا المرقسى ومن معه ويزورون الأهالى . وحيثما سمع الشعب أن باباهم قادم إليهم هرعوا لاستقباله . وبعد أن يقضى معهم يوماً أو أكثر يتركهم للذهاب إلى بلد آخر . وقد أظهر القبط ولائهم وتقديرهم لراعيهم الأول بأن قدموا له كل ما يمكنهم من مال . وحينما كانوا يسمعون أنه قضى ثلاثين يوماً فى السجن مكبلاً بالقيود كانوا يزدادون إعجاباً به وقد أفاض الله نعمته على هذا البابا الصبور فمنحه قوة الشفاء . فكان يشفق على مرضى شعبه ويشفيهم بالنعمة الالهية المتدفقة خلاله . وهكذا امتلأت قلوب أهل الصعيد بهجة وصفاء .

### حدوث زلزال يوم ان عاد الاتبا ميخائيل

وقد عاد الأنبا ميخائيل الأول من رحلته فى الحادى والعشرين من طوبة ( ٢٨ يناير ) . وكان هذا اليوم الذى وصل فيه إلى القسطنطينية يوم رعب وفتح (١) . فقد زلزلت

(١) حدث زلزال سنة ٧٥٠ م وأغلب الظن أنه هو الذى حدث فى هذه الفترة .

الأرض زلزلاً عنيفاً أسقط عدداً وفيراً من البيوت كما أغرق عدداً من المراكب . وحينما واجه البابا المرقسى هذه الثورة الطبيعية المزعجة دعا شعبه إلى الصلاة . فتوجه الجميع إلى الله ضارعين إليه أن يقيهم شر هذه الطبيعة الساخطة التي لم تلبث أن هدأت . ويبدو أن الزلزال قد لين قلب الوالى فقبل المبلغ الذى قدمه إليه البابا الاسكندرى دون أن يبدي شيئاً من التبرم . وما أن وجد الأنبا ميخائيل الأول نفسه حراً طليقاً حتى توجه إلى كنيسة أبى سرجة ببابلون حيث صلى القداس الالهى شكراً لله على جزيل نعمائه . وقد اشترك معه فى الصلاة جمهور كبير من القبط تسبيحاً للخالق الرحيم الذى تراعى عليهم بأن حن قلب الوالى .

### محادبة ملك النوبة لمصر

وحدث - حين كان الأنبا ميخائيل الأول معتقلاً فى السجن - أن بلغ قرياقوس ملك النوبة خبر هذا السجن فغضب غضباً مُضْرباً ، وجرّد جيشه وسار على رأسه إلى مصر . وتغلب على المصريين فى الصعيد ، وتقدم نحو الفسطاط ، وحين اقترب منها بعث بأحد رجاله إلى عبد الملك بن مروان يطلب إليه الافراج عن البابا الاسكندرى . على أن عبد الملك قبض على هذا الرسول الملكى وزج به فى السجن بدلاً من

اطلاق سراج الأنبا ميخائيل الأول . فلما استبطأ الملك النوبى رسوله عاوده الغضب واستمر فى زحفه على الفسطاط . وكان النصر حليفه إذ قد تمكن من الوصول إلى البقعة التى كانت معروفة يومذاك ببركة الحبش فى ظاهر الفسطاط . وعندما خشى عبد الملك أن يدخل الملك قرياقوس عاصمته ، فأطلق سراج المندوب النوبى ثم رجا منه أن يشفع فيه لدى ملكه ويؤكد له أن الأنبا ميخائيل الأول لم يصبح حراً طليقاً فحسب بل أنه سيلقى كل تجلته واحترام . ورضى المندوب النوبى أن يتوسط عند الملك ، ولكن هذا الملك لم يقبل وساطة رسوله إذ تشكك فى حقيقة اطلاق سراج البابا الاسكندرى ، ولم يكف عن القتال إلا حين ذهب إليه البابا الجليل بنفسه ، ورجا منه أن يعود إلى بلاده فى ثقة واطمئنان <sup>(١)</sup> .

### تحول قلب عبد الملك بن مروان الى الاتبا ميخائيل

ولقد كان لوساطة الأنبا ميخائيل الأول أكبر الأثر فى نفس

---

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى ( بالانجليزية ) لستانلى لاين پول طبعة لندن سنة ١٩٣٦ ص ٢٧ ، تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع الأسقوف الأشمونين ج ٣ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، مصر من مينا إلى فؤاد الأول ( بالفرنسية ) للأب دى هينو ص ٢٠٧ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاھر رياض ص ١٦٦

عبد الملك بن مروان إذ قد امتلأ قلبه حباً للبابا الاسكندري وتقديراً له ، وبالتالي أحس بعطف كبير على المسيحيين . واعتاد بعد ذلك أن يزور الأنبا ميخائيل الأول وأساقفته ويستشيرهم في جلائل الأمور .

### شخصية الأنبا ميخائيل

ولقد كان البابا ميخائيل الأول عذب الحديث ذا وجه باسم وضاء وقامة معتدلة ، هادئاً وقروراً . وكان تعليمه كالسيف القاطع للمبتدعين وكالمح لذوى الإيمان المستقيم . وكانت يد الرب معه أينما سار وحيثما حل . وقد تهلل قلبه لما طرأ على عبد الملك من تغيير ، ففضى وقته في تشييد الكنائس التي تهدمت وفي تثبيت القلوب التي وهنت <sup>(١)</sup> .

### ثورة القبط ثم هزيمتهم

على أن السلام لم يدم أمدته لأن الخليفة مروان أقام ابنه الثانى ( المدعو مروان أيضاً ) قائداً للجيش . وانتهاز عامل الخراج الفرصة فضاغف الجزية على القبط وشدد عليهم الخناق إلى حد جعلهم يشورون عليه ثورة عارمة اتخذت شكل حرب نظامية . وكان قائد الجيش القبطى فى تلك الحرب يؤنس

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية لسابورس بن المقفع..... ج ٣ ص ١٤٨

السمنودى . وقد دامت هذه الحرب عدة أيام انتهت بهزيمة القبط نتيجة لخيانة أحدهم (١) . فقد تملك الحسد قلب هذا الخائن فجاء إلى مروان بن مروان ليلاً وأعلمه بالمكان الذى أقيمت فيه خيمة يونس السمنودى . فسار جند مروان فى حلك الظلام خلف هذا الرجل الحسود إلى أن بلغوا خيمة القائد يونس ودخلوها خلسة وقتلوه وهو نائم . وما أن قتلوه حتى دقوا طبول النصر . فصحا الجند القبط ووجدوا جند مروان محيطين بهم من كل جانب ، وعلموا أن قائدهم قد قتل غدرأ . ولكنهم - رغم هذا - لم يسلموا ، وظلوا يقاتلون إلى أن غلبوا على أمرهم نهائياً . فكانت المعركة فى هذه الليلة الأخيرة أشبه بمذبحة هائلة منها بحرب نظامية ، راح ضحيتها مئات الرجال من القبط حتى لم يخلو بيت من قتبيل أو جريح أو سجين .

### نار الحرب والثورة تندلع فى كافة البلاد

وقد دارت رحى هذه الحرب الأهلية فى الأونة التى كانت الدولة الأموية على وشك أن تلفظ آخر أنفاسها . فقد قضى مروان على كرسى الخلافة سنين سبعة : قضاها شاهراً السلاح

---

(١) تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢

ص ٩٦ : القول الأبريزى للعلامة المقريزى ص ٥١

فى وجه كل منافسيه . وكانت بوادى الثورة قد أخذت فى  
الظهور بعد انقضاء هذه السنين السبع . فانتهاز امبراطور  
القسطنطينية - قسطنطين الخامس - فرصة تأجج نيران  
الثورة فى جميع أركان الدولة الأموية وزحف بجيشه على  
آسيا الصغرى . وهكذا أصبح مروان بين نارين نار الثورة  
الثورة التى أشعلها عليه قومه ونار الغزو من الامبراطورية  
القسطنطينية على الحدود الشمالية لسوريا (١) . وفى هذه  
الفترة المليئة بالثورات والقتال والأحزاب المتنافرة ظهر خصم  
جديد لم يكن فى الحسبان - فقد رفع أبو مسلم العلم الأسود  
الذى للعباسيين . وكان سياسياً لبقاً فتمكن من توحيد القبائل  
المتخاصمة تحت رايته وسار على رأس هذه القبائل نحو  
الولايات الخاضعة للدولة الأموية ونجح أبو مسلم فى قهر  
الولايات الواحدة تلو الأخرى دون أن يحاول الخليفة مروان  
نجدتها . ثم بعث له أحد ولاته برسالة أبلغه فيها أنه جالس  
فوق بركان ثائر وختم رسالته هذه بقوله : « ترى أين هم بنو  
أمية ؟ أنيام هم أم مستيقظون ؟ » وقد حفزت هذه الرسالة  
مروان إلى إرسال نجدة على الفور . ولكن القوة التى أرسلها

---

(١) الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها ( بالانجليزية ) للسير ولبيم

موير طبع فى أدلبرج سنة ١٩١٥ ص ٤٠٩ - ٤١٦ ، ٤٢٣

لم تكن كافية لصد القوات الزاحفة عليها . فقرر الخليفة أن ينزل الميدان بنفسه - ولكنه نزل بعد فوات الأوان . فقد قامت مملكته على الاستبداد والحكم بالسيف ، مما زاد عدد خصومه والساعين إلى اسقاطه . فتداعت الأرض من تحته حالما ظهر خطر العباسيين . وتلفت مروان يمينه ويسرة فوجد حصونه تتداعى الواحد تلو الآخر . ولم يجد أمامه سبيلاً غير الالتجاء إلى مصر فراراً من وجه خصومه وتوهماً منه أنه يستطيع أن يستجمع قواه فى وادى النيل ويكر على الزاحفين عليه ويغلبهم . فلما وصل إلى مصر وجدها فى حالة اضطراب وفوضى : فالسجون كانت غاصّة بالقبط الذين سقطوا أسرى بعد مقتل قائدهم يؤنس السنودى وعزيمتهم النكراء . وفوق هذا فقد رأى البشموريون أن يشقوا عصا الطاعة بدورهم ولكنهم رأوا أن يقوموا بحرب العصابات بدلاً من الحرب النظامية لسيططيعوا أن يفتوا فى عضد جند الوالى . وكان رئيس البشموريين الشائرين واحداً منهم واسمه مينا بن بقيرة . فكان يخرج هو ورجاله ليلاً يقتلون وينهبون ويشيعون الفز بين الجند المربوطين فى حدود مديرتهم . ثم يختبئون فى النهار متحصنين خلف الترع والمستنقعات التى تكتف أراضيها والتي لا يعرف مخاضاتها غيرهم . وقد رأى مروان - بإزا حرج موقفه من القوات الموالية لأبى العباس - أن يلج

لمفاوضة البشموريين بدلاً من الاستمرار في محاربتهم . ولكنهم  
رفضوا المفاوضة وأصروا على القتال<sup>(١)</sup> .

### القاء الأتبا ميخائيل في السجن مرة ثانية

وكان كل هذه الثورات والحروب لم تكن كافية لتنذر  
الخليفة مروان بقرب انهيار عرشه ، فزاد عليها قيام والى  
الاسكندرية بالثورة ضده أيضاً وعلان استقلاله بحكم هذه  
المدينة . فضايق مروان ذرعاً بهذه النيران المشتعلة حوله من كل  
جانب ، ولم يجد بداً من ارسال حوثره أكثر قواده بطشاً لقمع  
الثورة فى الاسكندرية . فقهر حوثره الجيش الاسكندرى ،  
وفتك بالأهالى فتكاً ذريعاً . وفى سورة غضبه ألقى القبض  
على الأتبا ميخائيل الأول وزعماء القبط . وفرض عليهم أداء  
مبلغ ضخ من المال . فلما عجزوا عن أدائه عنفهم على الثورة  
التي قام بها البشموريون تعنيفاً شديداً ، وألقاهم جميعاً فى  
السجن بعد أن كبل قدمى البابا الاسكندرى بالحديد كما أمر  
بضربه . ثم خطر فى بال حوثره أنه إن تمادى فى التنكيل  
بالأتبا ميخائيل الأول فقد يتمادى البشموريون فى قتالهم  
ضد جند مروان . ففك قيوده واقتاده إلى رشيد . ومن

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب، نخلة روفيلة س ٧٦-٧٧ .

هناك استكتب البابا الاسكندري خطاباً إلى البشموريين  
قنهم فيه على كل ما أصابه ولامهم على تماديهم  
سلى العدوان . وحين قرأ هؤلاء الثوار خطاب باباهم  
حتم غضبهم فضاغفوا هجماتهم على جند الوالى (١) .

### اقتراب جند ابي مسلم ووضع الاتبا ميخائيل تحت الحراسة

وبينما كان مروان متشاغلاً بالعمل على قمع ثورة  
لبشموريين وتمرد والى الاسكندرية بلغه أن ابا مسلم وجنده -  
من الخراسانيين (٢) - قد اجتازوا الحدود المصرية . وعندما  
بعث برسول عاجل إلى حوثره يستدعيه للعودة إلى القسطنطينية  
على الفور ، كما بعث برسول آخر إلى جنوده الذين يقاتلون  
لبشموريين يستدعيهم أيضاً . ولقد أوصى الجميع بأن ينهبوا  
ويسلبوا كل ما تصل أيديهم وأن يشعلوا النيران فى كل  
الأماكن التى يغادرونها . وكانت هذه الأوامر نتيجة لما أحس به  
مروان من خطر داهم .

وحين وصل رسول الخليفة إلى حوثره استدعى هذا

---

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط بقلم القمص شنودة الصوامعى الهرموسى

عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ١ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) خراسان هى بلد شاسعة تقع شرقى إيران وإلى الغرب من الهند ،

وتقع الصحراء الفارسية إلى الجنوب الشرقى منها

القائد الفشوم ظابطاً يثق فيه الثقة كلها وأمره أن يوصل  
الأنبا ميخائيل الأول وصحبه إلى الفسطاط . فرأى هذا الضابط  
أن يعود بهم إلى العاصمة عن طريق النيل تجنباً لما قد  
يتعرض له من خطر الثوار . وعندها سارع سكرتير البابا  
الاسكندري إلى أوسيم ليطلع أستقفا الأنبا موسى على ما  
جرى . وبينما كان الرجلان يتشاوران مرت بهما المركب التي  
تقل الأنبا ميخائيل الأول ورجاله فانضم إليهم الأنبا موسى  
قائلاً : «من شاء أن ينال اكليل الشهادة فليتبعدني لأن هذا هو  
اليوم الذي طالما تمنيته ، ولو أنى أحسب نفسي غير أهل لأن  
أسفك دمي على اسم ذاك الذي سفك دمه الزكى على عود  
الصليب من أجل خلاصى» . كذلك انضم إليهم سكرتير البابا  
المرقسى وقارئ من دير الأنبا مكارى الكبير ورجل من بلبس .

### امر مروان باشعال النار فى الفسطاط

وأدرك مروان أن الأمور تأزمت للغاية إذ بدأ العدو يزحف  
من الحدود المصرية إلى داخل البلاد . فأمر عازف البوق أن  
يعلن أهل الفسطاط بوجوب اخلاء المدينة لأنه قرر اشعال النار  
فيها بعد ثلاثة أيام . وإن من لم يخرج من هذه المدينة بعد  
الأيام الثلاثة المحددة سيأمر مروان بقتله قبل احراق العاصمة .  
وما أن أخذ عازف البوق يعلن أهالى الفسطاط بوجوب اخلاء

المدينة حتى تملكهم الفرع . فخرجت جموعهم على غير هدى متجهة نحو الجزيرة والجزيرة . وكانوا يتزاحمون على المراكب الراسية على شاطئ النيل ويتدافعون بغير وعى ففرق العدد العديد منهم . كذلك تناسى الناس - فى رعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم . وحين تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التى حددها لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليهم بل أمر بإشعال النار فى المدينة وهم فيها فراحوا جميعاً ضحية اللهب المتقد .

**اضطراد زحف العباسيين واصرار مروان على اعتقال البابا المرقسى**  
وحالما انتهى مروان من حرق الفسطاط ركب مركباً واجتاز النيل إلى ضفته الغربية ليكون فى مأمن من أعدائه . على أنه رغم اضطراره إلى الهرب وإلى محاولة استجماع قواه للملاقاة خصومة قد ظل على بطشه واستبداده . فأمر بعض جنوده بأن يحرسوا الأنبا ميخائيل الأول وصحبه ولا يسمحوا لهم بالخروج ، وأن يسيروا بهم حيثما سار هو ، ويضعوهم تحت الحراسة المشددة على مقربة من المكان الذى ينصب هو فيه خيامه .

وفى مساء التاسع عشر من أبيب ( ٢٦ يوليو ) وصلت طلائع الخراسانيين إلى الضفة الشرقية للنيل فى الجهة المقابلة للمنطقة التى أقام فيها مروان خيامه . ولم تكن هناك جسور

فى تلك المنطقة كما أنه لم يخطر ببال الزاحفين أن يدخلوا البلاد عن طريق النهر فلم تكن مراكبهم الحربية معهم . وهكذا تجابه الخصمان دون أن يستطيع أحدهما مقاتلة الآخر لأن النهر الخالد كان فاصلاً بينهما .

### أحد رجال البلاط يستثير حفيظة مروان ضد هذا البابا الجليل

وفى اليوم التالى أمر مروان باستدعاء الأنبا ميخائيل الأول وأتباعه لأن أحد رجال البلاط كان قد استثار حفيظته ضد البابا الاسكندرى بأن همس فى أذنه : « أتعرف أن هذا البابا قد قال لقومه « استبشروا فسينزع الله الملكة عن مروان ويعطيها لخصومه ، » ولما مثل رجل الله وصحبه بين يدى الخليفة مروان أمر هذا الطاغية أتباعه بأن يهينوهم علناً وهم وقوف على ضفة النيل على مرأى من الجيشين ومسمعهما . إلى حد أنه أمر بنتف لحية البابا وعندما أوسعهم الجند هزء وسخرية أمر مروان بترك البابا المرقسى فى العراء تحت أشعة الشمس اللاقحة . وكان هذا الحكم جائراً يوماً لأن شمس مصر فى شهر يوليو محرقة على أنهم تجملوا قيظ الشمس بثبات عجيب كما تحملوا الاستخفاف والازدراء فى هدوء وسكينة .

## شفاعة ابن مروان في البابا المرقسى وصحبه

وفي صبيحة اليوم الثالث وصل عدد من الأساقفة  
إلى الرهبان إلى حيث يقيم الأنبا ميخائيل الأول - جاؤا  
من شيهيت للاستفسار عن حالة باباهم ومشاركته آلامه .  
وتصادف أن وصلوا قبل انبثاق الفجر . وما كاد الظلام  
ينقشع وتبدده أشعة الشمس المشرقة حتى جاء السياف  
إلى الخيمة التي يقيم فيها الأنبا ميخائيل الأول ، وأمسك  
بيده قائلاً : « إن الخليفة يريد رؤيته بمفرده » ولكن  
الأنبا موسى لم يعجبه هذا الأمر ، فوقف إلى جانب  
باباه قائلاً : « حى هو الرب إني لن افترق عن أبى  
الروحى إذ قد آليت على نفسى أن أتبعه حيثما سار » وبينما  
كان السياف يحاول اقناع هذا الأسقف بوجود العدول عن  
قراره ، دخل الخيمة رسول ثانٍ من رسل مروان وأعلن بأن  
الخليفة يريد أن يرى الأنبا ميخائيل الأول ومن معه . فذهبوا  
إليه جميعاً . وما أن رأهم مروان حتى سلمهم إلى ضابط  
اسمه يزيد معروف بقسوته . فأخذ هذا الضابط يجهز آلات  
التعذيب إذ لم يكن استقر رأيه بعد على طريقة قتلهم . وفي  
تلك الساعة تقدم الأنبا موسى راجياً من البابا الاسكندرى

أن يصلى على رأسه صلاة التحليل (١) . عملاً بما يقتضيه  
الطقس القبطى . ومن ثم أخذ الجميع يصلون بعضهم لأجل  
البعض وقال شبابهم لشيخوخهم : « متى وجدتم نعمة عند الرب  
فاذكرونا » وكان هذا أيضاً عند ضفة النهر الخالد على مرأى  
الجيشين ومسمعهما . وكان لصلوات هؤلاء الشهداء ( بغير  
سفنك دم ) أثر بعيد جعل عدداً من المسلمين المحيطين بهم  
يكون شفقة عليهم وعندها تقدم عبيد الله الابن الأكبر لمروان  
وأخذ يستعطف أباه عنهم قائلاً : « تمهل يا أبى قبل أن تمس  
هؤلاء الرجال بأذى فنحن الآن فى ضيق عظيم ، وقد نضطر  
للهرب إلى السودان ، والسودانيون أولاد روحيون لهذا الشيخ  
الوقور . فلو أنك قتلته أو ألحقت به الأذى فإن السودانيون  
سيرفضون حتماً ايواننا ، بل قد يعمدون إلى الأخذ يثأره  
منا » . وقد اقتنع مروان بمنطق ابنه فأمر يزيد أن يرجع عن  
قتلهم واكتفى بحبسهم . فساقهم يزيد إلى زنزانة خلف ثلاثة  
أبواب حيث الظلام دامس والهواء خائق . وفى هذا الحبس  
الضيق تكلم الأنبا ميخائيل الأول بكلمات العزاء المثلثة نعمة .

---

(١) هى الصلاة التى يتلوها الكاهن على المؤمن ليحله من خطيئة ،  
ويقرأها الأسقف على الكاهن ، والبابا على الأسقف .

« وكانت كلماته أشبه بأنغام قيثارة عذبة ، بينما انطلقت نسمة الحياة من فمه وهو يسبح الله تعالى بتسابيح روحية وبواظب على الصوم والصلاة <sup>(١)</sup> . أما الأنبا موسى فقد تنبأ قائلاً : « لن يقتلونا ولكننا سنظل محبوسين حتى يموت مروان » .

### ابن قسطنس وعنايته بالانبا ميخائيل

وكان بين كبار القبط المدنيين رجل اسمه ابن قسطنس ، وكان هذا الرجل باراً يخاف الله ويحب الناس ، وقد توج هذه الصفات بالشجاعة . فهاله أن يكون البابا الاسكندري ومن معه في ضيق شديد دون أن يعنى أحد بأمرهم ، وأخذ على عاتقه أن يخدمهم بنفسه . فكان يزورهم يومياً في السجن ويحمل إليهم ما يحتاجون إليه <sup>(٢)</sup> .

---

(١) تاريخ البطارقة لساورس بن المقفع أسقف الأشمونين طبعة ايليتس ج ٣ ص ١٨ .

(٢) تاريخ البطارقة مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعي البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس ج ١ ص ١٧١ .

## جند مروان يمعنون فى القتل والسلب

وظل الجيشان فى مجابهة أحدهما الآخر أياماً عديدة . وفى تلك الأثناء أطلق مروان لجنده العنان ، فانشغلوا بالقتل والسلب واشعال النار فى البيوت والحقول . ولم تقتصر اعمال العنف التى قمادوا فيها على المنطقة التى كان مروان قد نصب خيامه فيها ، بل امتد إلى أقصى الصعيد فذاق المصريون الأهوال على أيدي الجند . وقد ضاعف هؤلاء الجند تنكيلهم بالرهبان والراهبات ، وأمعنوا فى احراق الأديرة <sup>(١)</sup> . وفى

---

(١) راجع ما أورده ستانلى لاين بول فى كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » ( بالانجليزية ) س ٢٧ - ٢٨ نقلاً عن أبى صالح الأرمنى . ويجدر القول هنا بأن المؤرخين اكتشفوا أخيراً أن الكتاب الذى نسبته من سبقهم إلى أبى صالح هو فى حقيقة الأمر من نتاج أبى المكارم القبطى الذى عاش فى القرن الثانى عشر . ويرجع الخطأ إلى أن النسخة الأولى التى عثر عليها الباحثون كانت تنقصها الورقة الأولى . وكانت جلدة هذه النسخة تحمل اسم أبى صالح - أى أنها كانت ملكاً له - وما أنه لم يوجد أى أسم آخر على هذه النسخة الأولى فقد درج الكتاب على نسبتها إلى أبى صالح . ثم شاء الله أن يعثر الباحثون على نسخ أخرى عرفوا منها أن المؤلف هو أبو المكارم القبطى .

وسط هذه الآلام المريرة انجذبت القلوب والعيون إلى رب السماء  
ليترافع على الشعب المصرى المذبذوب ولسان حالهم يردد كلمات  
صاحب المزمور حيث قال : « تأملت عن اليمين وأبصرت فلم  
يكن من يعرفنى . ضاع المهرب منى ولم يوجد من يطلب  
نفسى فصرخت إليك يا رب وقلت أنت هو رجائى وحظى فى  
أرض الأحياء ..... (١) أو ذلك البيت من الشعر الذى ارتفع  
به أحمد شوقى ( أمير الشعراء ) إلى المولى تعالى قائلاً :

« سُدت على مذاهبى ومسالكى إلاإليك فما عساي أصنع »

ومن العجيب أن يسترسل مروان فى هذه الأعمال التى  
لا تؤدى إلا إلى كراهية الناس له فى الوقت الذى كان  
أعداؤه يترصدون به . فلم يكن يستغرب أن يحاول  
المصريون - فى ضيقتهم وفى استنجادهم بالله تعالى -  
القضاء على هذا الخليفة الفاشم . وكان مروان قد أقام  
حراسة على مخاضات النهر الخالد ، ورغم هذه الحراسة  
فقد قام من بين الأهالى من أرشد الحراسانيين سراً  
إلى مواضع المخاضات . وحين عرف الحراسانيون هذه

---

(١) عن مزمور ١٤١ فى الأجبية و١٤٢ فى الكتاب المقدس .

المواضع قسموا جيشهم إلى أربعة أقسام لكي يضمنوا  
النصر .

## مروان يهرب فيفتح المسلمون باب السجن للأنبا ميخائيل وصحبه

وفى التاسع والعشرين من شهر أبيب خاض الخراسانيون  
النيل وانتقلت جيوشهم من ضفته الشرقية إلى ضفته الغربية  
فلما رأهم مروان قادمين نحوه ورأى جموعهم تفوق جموعه  
عداً امتلاً رعباً فسارع إلى الهرب متجهاً جنوباً نحو صعيد  
مصر . ولشدة ما أصابه من الرعب ، ولرغبته فى سرعة الهرب  
نسى أن الأنبا ميخائيل الأول وصحبه لا يزالون مطروحين فى  
السجن . وقد أراد أن يباعد الشقة بينه وبين خصومه فأشعل  
النيران فى النزعات ( بالجيزة ) قبل أن يتراجع مع جنده عن  
مواقعهم . على أن أهالى الجيزة تمكنوا من اطفاء الحريق  
بسرعة حالما ابتعد مروان عنهم . كذلك انتظر بعض المسلمين  
حتى مغيب الشمس ليتأكدوا من أن مروان لن يعود ثانية  
إليهم ثم فتحوا باب السجن الذى كان يقيم البابا المرقسى  
وصحبه . ولم يكتفوا باطلاق سراحهم بل ساروا معهم حتى  
أوصلوهم إلى دار الأنبا بطرس أسقف الجيزة . وفى الطريق

انضم إليهم جمهور من القبط . وكان ذلك فى ليلة الأحد الأول  
من شهر مسرى المبارك (١) .

### مقتل مروان وهرب ولديه وعودة بناته إلى حاران

وكان لمروان عن بدء القتال ثمانية آلاف جندى لم يبق منهم  
غير أربعمائة . فازداد خوفاً من أن يظفر به أعداؤه ، واستمر  
يتقهقر جنوباً والحراسانيون يتعقبونه . فلما خشى أن يقع فى  
أسرهم لجأ إلى الكنيسة القائمة فى بلدة أبى صير (٢) حيث  
اختبأ داخل حرمها . على أن بعض جنده خانه وأفشى  
سرمكته . فدخل عليه نفر من الحراسانيين وقتلوه . أما ولداه

---

(١) وهى الليلة السابقة لبدء الصوم المعروف بصوم السيدة العذراء  
وينتهى فى ١٦ مسرى ( ٢٢ أغسطس ) وهو اليوم الذى تعيد فيه  
الكنيسة بذكرى حمل الملائكة جسد والدة الاله إلى السماء .

(٢) هناك خمسة بلدان تحمل هذا الاسم وهى : ا - أبو صير المحطة  
( أبو حماد ) بمديرية الشرقية ، ب - أبو صير الجيزة ، ج - أبو صير  
الملق بالواسطى ، د - أبو صير دفنو باطا الفيوم ، هـ - أبو صير  
سمنود . وبما أن مروان هرب جنوباً فأباصير التى أختبأ فى كنيستها لا  
يمكن إلا أن تكون تلك التى فى الواسطى أو التى فى الفيوم ويقال  
أيضاً أنها فى الجيزة .

فهربا إلى الحبشة ( اثيوبيا ) حيث قتل الأهالي أحدهما بينما تمكن الثاني من الالتجاء إلى فلسطين . وهناك قضى بضع سنين اقتيد بعدها إلى الخليفة المهدي الذي أكرم وفادته وسمح له أن يعيش في قصره . أما بنات مروان فكن قد أختبأن في كنيسة غير تلك التي أختبأ فيها أبوهن . على أن أحد أتباعهن خان العهد هو أيضاً وأرشد الخراسانيين إلى موضع اختبائهن فأخذهن الأعداء خان العهد هو أيضاً وأرشد الخراسانيين إلى موضع اختبائهن . فأخذهن الأعداء عنوةً إلى الأمير صالح أخى الخليفة العباسى . وكانت كبراهن فصيحة لا تنقصها الشجاعة ، فشفت في أخواتها ونجحت في الحصول على حريتهن . وعندها ذهبن كلهن إلى حاران مسقط رؤوسهن حيث عشن في سلام بقية أيام حياتهن .

### قيام الدولة العباسية وتسرب القلق إلى النفوس

وسقوط مروان انتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس ، فتحولت العاصمة من دمشق إلى الكوفة ببغداد<sup>(١)</sup> . أما الخراسانيون الذين عاونوا أبا العباس على

(١) « الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها » ( بالانجليزية )

للسير ولیم مور طبع فی أدنبرج سنة ١٩١٥ ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

النصر فقد اتصلوا بالأنبا ميخائيل الأول وأكرموه كل الأكرام  
وكانت التجارب قد صقلته فزادته حكمة وحنكة . وفى تلك  
الفترة تمكن من أن يعيد بناء الكنائس التى تهدمت وأن  
يستعيد أموالها المبددة . وقد أحسن الخراسانيون إلى  
البشموريين كذلك بأن أعفوهم من الجزية كما منحوهم الهبات  
المالية الوفيرة .

وقد عاود الهدوء الحياة المصرية ، إلا أنه كان هدوءاً مؤقتاً  
للفترة ذلك لأن العباسيين - رغم عملهم على اقرار الأمن -  
اتبعوا سياسة تبديل الولاة بسرعة خشية أن ينجح أحدهم فى  
استمالة القلوب إليه فتسول له نفسه الاستقلال بالبلد الذى  
ولى أمره <sup>(١)</sup> . وقد تسرب القلق والاضطراب إلى القلوب  
نتيجة لهذه السياسة إذ قد جعلت الشعور بعدم الاستقرار  
يسود الجميع . ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء الولاة - لادراكهم  
أن مدة ولايتهم قصيرة - كانوا ينصرفون إلى جمع المال بشتى  
الوسائل حتى يفتنوا قبل عزلهم . وبالطبع كانت أسهل وسائلهم  
مضاعفة الضرائب وبخاصة على القبط . وبعد أن ساد السلام

---

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى ( بالانجليزية ) لستانلى لايين

سنتين كاملتين واجه القبط ضغطاً جديداً . لأن الولاة لم يتشددوا معهم في جمع الجزية وفي المطالبة بمقادير باهظة من المال فحسب ولكنهم جعلوا العفو قاعدة التعامل لمن ينكر دينه أيضاً . وقد أدت هذه الخطة الاستبدادية إلى أن يعلن عدد من القبط اعتناقهم الاسلام . فهال الأنبا ميخائيل الأول الأمر ، وتوجع قلبه ، فذهب لمقابلة الوالى وذكره بالعهد الذى كان قائد الخراسانيين قد عاهده إياه عند انتصاره على مروان . فأجابه الوالى بأن الخليفة قد بعث بأوامر مشددة فى فرض الجزية الباهظة والحصول عليها بكافة الوسائل لأن أحد رجال بلاطه قد نجح فى اقناعه بأنه إن اتبع سياسة اللين مع القبط فسيثورون عليه . على أن مثل هذا العذر لم ينطل على البابا الاسكندرى فاستعان بالأنبا موسى على التفاوض مع كتبة الديوان . وبعد مفاوضات دامت شهراً كاملاً نجح هذان الحبران الصبوران فى تخفيض الجزية المفروضة .

### أبو عون الوالى الجديد يحسن معاملة القبط

ولقد رأى الله تعالى - فى شامل عدله - أن يكافئ الأنبا ميخائيل الأول على جهاده الشاق المتواصل فهياً له الفرصة المواتية إذ قد صدر أمر الخليفة بتعيين رجل اسمه أبى عون والياً على مصر . وكان أبو عون هذا رجلاً منصفاً اتخذ حسن المعاملة خطة يسير بموجبها . فتنفس القبط الصعداء

ومجدوا الله تعالى الذي أقام عليهم هذا الوالى العادل . وانتهر  
الأنبا ميخائيل الأول فرصة السلام فقام برحلة راعوية . ومرة  
أخرى - ضمن عشرات المرات - تلاقى الشعب براعيه فى ظل  
السلام بعد انقضاء فترة الظلم والاستبداد . إذ كانت خطة  
الباباوات الاسكندريين القيام بمثل هذه الرحلات الراعوية كى  
يراهم الشعب مستمتعين بالحرية والسلام بعدما جازوا الأهوال  
والآلام ليزدادوا يقيناً بأن مراحم الآب السماوى لا بد متدركة  
إياهم إن عاجلاً أو آجلاً . وقد تهلل قلب الأنبا ميخائيل الأول  
إذ رأى النعمة الالهية فائضة على أبنائه الرهبان إلى حد  
جعلت البعض منهم يتنبأ والبعض الآخر يشفى الأمراض <sup>(١)</sup> .

### ابو عون يغير مقر عاصمته

وقد غير أبو عون مقر عاصمته بأن بنى ضاحية جديدة  
للفسطاط فى منطقة تعرف باسم الحمراء القصوى عرفت فيما  
بعد باسم العسكر . وقد تضمنت هذه الضاحية الجديدة مساكن  
الوزراء والحرس الملكى ، وكانت متصلة بالفسطاط عن طريق  
الضواحي الأخرى المجاورة لها <sup>(٢)</sup> .

---

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى  
عن النسخة المحفوظة بدير البرموس ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى ( بالانجليزية ) لستانلى لايز  
بول ص ٣٠ - ٣١ .

## اسقف حاران يطمع في بطريركية انطاكية

وحدث أن ظل الكرسي الأنطاكي شاغراً مدة من الزمن بسبب الأحداث السياسية . فاشتفى اسحق أسقف حاران أن يحظى بشرف اعتلائه وكان أسحق هذا على صلة وثيقة بالملك عبدالله أبى جعفر لان الله جل اسمه كان قد رزق هذا الملك ابناً بصلاته . وكان عبد الله مقيماً بحاران فى تلك الفترة . فاستعان اسحق بعبد الله ليحقق أمنيته . فلم يكتف هذا الملك بتعصيد اسحق فيما يرجوه ، ولكنه قتل أسقفين عارضا فى رغبته قائلين له : « إنك أسقف ، وما دمت قد نلت هذه الكرامة وجب عليك الخضوع للقوانين الرسولية القاضية بأن لا يترك اسقف ايبارشيتة لغيرها . كذلك نهى الرسل عن أخذ كرامة الكهنوت من يد السلطان . ألا تعلم أن من يقدم على هذا العمل يستحق الحرم ؟ »

هذا الاسقف يبعث برسالة الشركة مصحوبة بهدايا ثمينة وتهديد صريح

ولما فاز الأسقف اسحق بالكرسي الأنطاكي أراد أن يعزز مركزه فبعث برسالة الشركة إلى الأنبا ميخائيل الأول مصحوبة بهدايا ثمينة . وسلم الرسالة والهدايا إلى أسقفى دمشق وحمص مشفوعة بتهديد للبابا الاسكندرى بأنه إن رفض

الشركة فعليه المشول بين يدي عبد الله في حاران لتأدية الحساب عن رفضه .

ولما وصل رسل الأسقف اسحق إلى الفسقاط قصدوا لغورهم إلى أبي عون وإلى مصر . فلما علم أبو عون بمضمون الرسالة التي يحملها رسل الأسقف الأنطاكي بعث في طلب الأنبا ميخائيل الأول الذي حضر إلى دار الولاية . فأطلع أبو عون على الرسالة راجياً منه أن يستجيب لطلب الأسقف اسحق . فطلب إليه البابا الاسكندري أن يمهله ثلاثة أيام كي يعقد مجعاً من أساقفته للتشاور معهم في الأمر . ولبي الوالي طلبه على الفور .

### خطاب الاتبا ميخائيل وثيقة مجد وبسالة

وبعث الأنبا ميخائيل بالدعوة الى أساقفته فلبوها جميعاً . كذلك دعا الأسقفين الأنطاكيين فقبلا الدعوة أيضاً . وظل المجمع يوالي جلساته شهراً كاملاً ، والوالي لا يضايق أحداً ولا يحاول أن يذكر البابا الاسكندري بأنه لم يطلب غير ثلاثة أيام للرد عليه . وفي مطلع الشهر الثاني اجتمع الأساقفة في كنيسة السيدة العذراء ( الشهيرة بالمعلقة ) ببابلون حيث دعاهم البابا المرقسي ليبلغهم قراره النهائي في هذا الموضوع الخطير : موضوع انتقال أسقف من ايبارشيتته إلى أخرى . أما

قراره فقد سجله فى الخطاب الذى كان ينوى ارساله الى  
الأسقف اسحق مع مندوبيه ، والذى يُعد وثيقة تاريخية  
مجيدة ، وهذا نصه : « ولا السيف ولا النار ولا الرمي للأسد  
ولا النفي ولا هذه كلها مجتمعة تخيفنى . لن أرضى بعمل  
غير قانونى . ولن أدخل نفسى تحت حرمى الذى كتبته بخط  
يدى والذى أعلنت فيه أنه لا يجوز للأسقف أن يصير  
بطريكاً . ولقد حرم أبائنا المكرمون كل من يأخذ الكهنوت  
من يد السلطان . فإن الأساقفة كانوا قد كتبوا إلى من  
أنطاكية فى أيام يوحنا البطريك أن كل من جلس بعده من  
المطارنة على السدة البطريركية يكون محروماً . وقد وقّعت  
بامضائى على قرارهم هذا . فكيف أحرم نفسى الآن ؟  
وكيف أهرى اليوم ما حرّمته بالأمس ؟ بل كيف أعترف الآن بما  
أنكرته من قبل ؟ وإن الآباء المكرمين أنفسهم قد حرّموا كل  
من يسلك هذا المسلك » . وقد سلّم الأنبا ميخائيل الأول  
خطابه هذا إلى الأسقفين المنتدبين من الأسقف اسحق .

### استعداد الاتبا ميخائيل للسفر الى حاران

فعاد رسولا الأسقف اسحق إلى أبى عون والى مصر و طلبا  
إليه أن يكلف البابا الاسكندرى بالذهاب معهما إلى حاران .  
وكان أبو عون يحب الأنبا ميخائيل حباً جعله يخشى عليه

المخاطر . فاختلى به ورجا منه أن يخضع لحكم عبد الله أبى الجعفر والأساقفة الموالين له . ومما يجدر ذكره تقديراً لهذا الوالى العادل ، أنه مع الحاحه على البابا المرقسى بالموافقة ، فقد ترك له مطلق الحرية فى الذهاب أو البقاء فى مصر تبعاً لرغبته . ولقد شكر الأنبا ميخائيل الأول أبا عون على ما أبداه من عطف ومودة ، ولكنه صارحه بعزمه على التمسك برأيه . ثم خرج مع صحبه من الأساقفة والأراخنة . ولازمهم رسولا الأسقف الأنطاكى وهما يلحان فى طلب الرد . فأفهمهما البابا الاسكندرى أنه سيسافر معهما إلى حاران . ثم التفت إلى الأنبا موسىس وسأله : « أتسافر معى ؟ » أجابه : « نعم فقد عاهدت نفسى أن ألازمك حيثما ذهبت » . وهنا أعلن الأنبا ثيودورس أسقف بابلون عن رغبته فى الذهاب معهما أيضاً . وعندما طلب الأنبا ميخائيل الأول إلى سكرتيه أن يهين لهم كل ما يلزمهم للسفر فنفذ السكرتير طلب بابا الجليل ولما أكمل اعداد كل شئ وكان هؤلاء الأبحار الكرا . على أهبة السفر إذا برسول قد وصل إلى القسطنطينية أعلن انتقال الأسقف اسحق إلى رحمة مولاه . وعند ذلك بادر الرسل الأنطاكيون بالعودة إلى بلادهم فى سكون ، كما ظل الأنبا ميخائيل الأول وأساقفته فى مصر مستريحى الضمائر .

## استتباب السلام ونياحة البابا الاسكندري

وقد ساد السلام ربوع مصر فى السنوات الأخيرة لباباوية الأتبا ميخائيل الأول ، إذ قد رأى الآب السماوى فى شامل محبته أن يكافئ هذا الأب الجليل على كل الخدمات التى أداها والآلام التى احتملها . وكانت التجارب والمعن التى جازها قد أثرت على صحته كما أثر عليه كراً الأيام ومر الليالى . فانتقل إلى عالم النور بعد أن قاد سفينة الكنيسة المقدسة ثلاثاً وعشرين سنة ونصف تبعاً لما ورد فى المخطوط المحفوظ فى مكتبة دير الأتبا مكارى الكبير ، ودفن جثمانه الطاهر بكل اكرام ومجلة مع أحداث الآباء القديسين . بركة صلواتهم جميعاً تكون معنا إلى النفس الأخير آمين <sup>(١)</sup> .



(١) للاطلاع على تفاصيل الأحداث التى جرت فى تلك الفترة الحاسمة وعلى سيرة الأتبا ميخائيل الأول راجع تاريخ بطاركة الأسكندرية للأتبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (طبعة ايفيتس)

ج ٣ ص ٨٨ - ٢١٥

الفاشر



المراسلات : ص ب ١٧  
الابراهيمية - اسكندرية



٣٥